

الترتيل

كما هو معروف كان الترنيمة والتسبيح موجوداً منذ أيام الكنيسة الأولى وهو ليس بشيء جديد في العبادة الحديثة. الرب يسوع المسيح وتلاميذه الرسل أَلطهَار "سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون" (مر 14:26) بعد العشاء السري. القديس بولس الرسول مع تلميذه سيلا عندما كانا في فيليبّي للكرّازة هناك كما هو مذكور في سفر أعمال الرسل، "ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصلّيان ويسبحان الله". وفي رسالة بولس الرسول إلى أفسس (5:19) يقول "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب".

بعد فترة الرسل كان الشعب يرتل خصوصاً المزامير، بعدها ظهرت التراتيل وألحان المنظومة، والودية. وكان الكهنة في البداية هم من يقومون بترتيل التسابيح وفيما بعد كانت فئة متخصصة معينة من الشعب ترتل هذه التسابيح وألحان التي سُميت "المرتلون".

حسب كتاب سيلفيا الذي يصف الحياة الكنيسة في أراضٍ المقدسة ووجد في القرن الرابع ميلادي، كان الترتيل مهمّة الشعب والمرتلين، وحسب التعليم والتربية المسيحية آنذاك كان من الصعب على الشعب أن يُتابع بشكل مباشر القراءات من الكتاب المقدس وأن يُرتل الترانيم والمزامير بأن واحد، لذلك كان ينقسم الشعب إلى مجموعتين (ما يسمى الآن الخوروس)، وبالإضافة إلى ذلك كما كان مُتبعاً في أنطاكية وأورشليم حسب التقدير كانت هنالك مجموعة إضافية من الأولاد تُرتل "يا رب إرحم" خلال صلوات الغروب. اشتراك الشعب والأولاد في الترتيل أعطى الطقوس طابعاً جميلاً حيويّاً وتأثيراً روحانياً كبيراً على الحياة الكنيسة.

عند تشييد كنيسة القيامة على يد الملكة هيلانة وإبناها الإمبراطور قسطنطين الكبير بعدما وجدت القديسة هيلانة الصليب المُكرم وموضع الجلجلة وبناء الكنائس فوق الأماكن التي رافقت حياة السيد المسيح على الأرض، أصبحت المدينة المقدسة أورشليم تحظى بمركز هام ورئيسي في العالم المسيحي. في القبر المقدس كما تصف سيلفيا في كتابها شأهت النور المُقدس يضيء المكان، وصلوات بشكل دائم من الناس حوله، وشأهت أناساً ليس لهم أي مهمة طقسية أو رتبة دينية

يشاركون بالتسايح حول القبر المقدس. وفي تلك الفترة كان من الضروري تأسيس طغمة (فرقة) الرهبان ليخدموا في الكنائس المقدسة التي شُيّدت. لهذا في سنة ٣٢٦ بالإضافة الى بناء كنيسة القيامة, تأسست أيضاً أخوية القبر المقدس تحت إشراف حارس ألواني المقدسة في كنيسة القبر المقدس. هذه الأخوية تُكوّن داخل الكنيسة طغمة أو مجموعة معينة لأن القديس كيرلس البطريك أورشليمي آنذاك كان قد ذكرها بإسم "طغمة النساك أو الزهاد", التي كانت تذكرها دائماً سلفيا في كتابها حيث ذكرت أن وظيفة الرهبان هي القيام بالطقوس والتسايح والسهرانيات, وكانت هناك مجموعة أخرى من الرهبان في كنيسة بيت لحم. وتصف أيضاً أن الشعب كان يشترك بالطقوس أيام الآحاد والاعياد خصوصا, أما في الأيام العادية من الأسبوع كانت الطقوس والمراسيم تُقام من رهبان القبر المقدس يترأسهم أسقف أورشليم ومن بعدة الكهنة, وكان للمتقدم في الشمامسة درجة خاصة بالنسبة لغيره لأن مهمته كانت تقتصر أن يُعلن للشعب عن الطقوس والاعياد المختلفة.

كما يظهر, الطقوس والتسايح كان لها تألقاً خاصاً خصوصاً في أعياد المسيحية الكبيرة المهمة, حيث كانت الأماكن المقدسة تُزين بالذهب, ويلبس الكهنة اللباس الكهنوتي الذي كان يُصنع آنذاك من الحرير.